

حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي ومساهمته في تعليم المرأة

بقلم : الدكتور نسيم أختر الندوي
(قسم اللغة العربية وآدابها : الجامعة المنية الإسلامية - نيودلهي)

قد أنجبت الأرض عددا لا بأس به من الشخصيات التي تالأت على الأفق ؛ ثم هوت ، أو ذبلت قبل أن تفتح ، أو انصهرت في بوتقة الخمول والغياب ، ولكن العدد القليل السعيد من الوري نالوا السمعة الخالدة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فنجد منهم بدون شك شخصية الشيخ أشرف علي التهانوي ؛ حكيم الأمة ؛ ومجدد الملة ، والذي اختاره الله لإقامة دينه ؛ وإصلاح عباده ، فحمل لواء شريعته الغراء مخلصا لدينه ؛ ومتسما بالإخلاص ؛ وحب رسول الله ﷺ ، ومتضلعا بشتى العلوم والمعارف ، فجعله الله مفسرا ، ومحدثا وفقها ، قدم حلولاً لكث من المشكلات الفقهية القديمة والجديدة ، وألقى مئات من الخطب العلمية والإصلاحية التي حلول بها قمع الشرك والبدع والخرافات ؛ وإزالة تأثير الحداثة ؛ والنظرات الباطلة العديدة عن المجتمع المسلم .

ولد في "تهانه بهون" في الخامس من شهر ربيع الثاني عام ١٢٨٠هـ في أسرة نبيلة ، فكان والده رجلا غنيا مثقفا ؛ و والدته امرأة ذكية صالحة ، توفيت وهو كان في الخامس من عمره ، فنشأ وترعرع في رعاية والده ، وتلقى دراسته الابتدائية في "ميرت" ؛ حيث درس الكتب الابتدائية للغة الفارسية ؛ وحفظ القرآن الكريم ؛ ثم رجع إلى "تهانه بهون" ؛ ودرس الكتب الابتدائية للعربية ؛ و الكتب المتقدمة للفارسية على مولانا فتح محمد ؛

وعمه واجد علي رحمهما الله تعالى .

التحق الشيخ التهانوي بدار العلوم ديوبند ؛ في عام ١٢٩٥ هـ ، حيث استفاد بوجه خاص من أستاذه الجليل الشيخ يعقوب رحمه الله ، و نال إعجاباً كبيراً من أستاذه الشيخ محمد محمود حسن رحمه الله ، وتخرج فيها في عام ١٣٠١ هـ ، إنه تعلم فن التجويد من عبد الله المهاجر المكي في مكة المكرمة (١) .

بدأت خدماته للدين من مدرسة "فيض عام" بكانفور ؛ حيث انشغل بمهام التدريس والتأليف والتبليغ والإفتاء ، وفي هذه المدة فحل بمنهله العلمي الفياض كثير من الطلاب ، و من أبرزهم فضيلة الشيخ محمد إسحاق ، مؤسس المدرسة العالية بكونكاتا ؛ وفضيلة الشيخ أحمد علي ، البارع في الفقه ، والذي استفاد منه الجماهير في "فتحفور" و "بارابنكي" ، والأستاذ الفاضل فضل حق الإله آبادي ، المتضلع بالفلسفة ، وفضيلة الشيخ حكيم محمد مصطفى البجنوري ، الذي اشتهر في الأدب العربي و المنطق ؛ وقام بشرح "الانتباهات المفيدة" للأستاذ التهانوي ، والبروفيسور إسحاق علي الكانفوري ؛ أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة إله آباد ، والأستاذ ظفر أحمد العثماني ؛ مؤلف "إعلاء السنن" (١١/١ مجلداً) في الفقه والحديث (٢) ، رجع الشيخ التهانوي إلى "قمانه بهون" في عام ١٣١٥ هـ ؛ وواصل خدماته لنشر الدين والمعرفة ، و وصل إليه طلاب العلم والمعرفة من جميع نواحي الهند وخارجها من إفريقيا وبريطانيا ، وكلهم رجعوا مطمئنين .

-
- (١) محمد عبد الله (بروفيسور) (الحياة والتعليمات للشيخ أشرف علي التهانوي) آدم بليشر آيند دسترييوت ، دلهي ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٧ م : ص/٨ .
- (٢) نفس المصدر المذكور أعلاه : ص/٩ .

ظلت هذه السلسلة مستمرة حتى رجع هو بنفسه فهاثيا إلى ربه سبحانه وتعالى في عام ١٣٦٢هـ (تغمده الله بواسع رحمته ، وأسكنه فسيح جناته) .

قد ألف الأستاذ التهانوي حوالي ألف كتاب بين كبير وصغير ، ومعظمها باللغة الأردنية ، فإذا قام أحد بالمقارنة بين أعداد مؤلفاته وأعوام عمره تجول في خاطره إنجازات الإمام جرير الطبري ؛ والحفاظ الخطيب البغدادي ؛ والإمام الرازي ؛ وابن الجوزي ؛ والحافظ السيوطي ، وفي الهند الشيخ أبي الحسنات ؛ وعبد الحي الفرنجي محلي ؛ و نواب صديق حسن خان الذين بارك الله في إنجازاتهم بركة قلما يتصوره الإنسان .

إن مؤلفاته "بيان القرآن" في علم التفسير ؛ و "إمداد الفتاوى" في علم الفقه ؛ و "تربية السالك" في علم التصوف قد بلغت مكانة المجتهد ، وهي تعتبر من المراجع المهمة جدا ؛ حول المواضيع المعنية (٣) ، أما الكتب الأخرى فكلها ذات أهمية خاصة ؛ ولا يتسع المقام هنا لذكر جميع كتبه ، ونكتفي بذكر مؤلفاته بالعربية ؛ فهي :

١- سبق الآيات في نسق الآيات . ٢- أنوار الوجود .

٣- التجلي العظيم . ٤- حواشي بيان القرآن .

٥- تصوير المقطعات . ٦- التلخيصات .

٧- العشر . ٨- الخطب الماثورة . ٩- زيادات .

١٠- جامع الآثار . ١١- تأييد الحقيقة .

أما دوره في تعليم المرأة ؛ فهو يعرف خاصة بكتابه : "بهشتي زيور" (باللغة الأردنية) والذي قدم فيه الشيخ التهانوي صورة ملخصة جامعة

(٣) أبو العرفات محمد ناصر التاولوي ؛ "الأصول والضوابط للشيخ التهانوي" (بالأردنية) ، مكتبة حكيم الأمة ، باغيت ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠١م : ص/١٥ .

لمفاهيم القرآن الكريم ؛ والسنة المطهرة ، وتناول فيه معظم القضايا الخاصة بحياة المرأة اليومية ، فهذا الكتاب موسوعة للإسلام ذاع صيتها في الوقت الذي لم يكن يتوفر فيه أي كتاب من نوعه باللغة الأردية يحقق متطلبات النساء ، فقد بحث فيه المؤلف : الإيمان ؛ والعبادات ؛ والأخلاق ؛ والمعاملات ؛ وأساليب الحياة إلى جانب التوجيهات القيمة الخاصة بشؤون المنزل ؛ والأمور العائلية .

هذا الكتاب يجسد فعلاً اهتمامه البالغ بتعليم النساء اللاتي ظلت أغلبيتهن فريسة للانفلات ؛ وعدم العناية من قبل المجتمع المسلم الهندي في مجال التعليم بالرغم من تواجد الدلائل القوية ؛ والنصوص الواضحة التي تحث المسلم والمسلمة على الاهتمام بالعلم سواء بسواء ، فيشجع ديننا الإسلامي الحنيف المرأة على طلب العلم ؛ ويجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ؛ كما نصت عليه آيات الوحي الأولى ، قال عزّول : ﴿ اقرأ ﴾ * باسم ربك * الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ * وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴿ (٤) ، وتستبين أهمية العلم كذلك من الأحاديث النبوية ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " (٥) ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : " عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض وقبضه أن يرفع " (٦) ؛ وقد بين رسول الله ﷺ فضائل تربية البنات والأخوات والإحسان إليهن في العديد من الأحاديث ؛ فقال : " لا يكون لأحدكم ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ؛ فيحسن إليهن إلا دخل الجنة " (٧) ، وفي رواية أخرى : " من كان

(٤) سورة العلق ١-٥ .

(٥-٦) مقدمة سنن ابن ماجه .

(٧) سنن الترمذي ، كتاب البر ، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات .

له ثلاث بنات ؛ أو ثلاث أخوات ؛ أو ابنتان ؛ أو أختان ؛ فأحسن صحبتهن ؛ واتقى الله فيهن ؛ فله الجنة" (٨) ، وقال : "من عال جاريتين دخلت أنا ؛ وهو الجنة كهاتين ، وأشار بإصبعيه" (٩) ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : "من ابتلي بشئ من البنات ؛ فصر عليهن ؛ كن له حجاباً من النار" (١٠) ، وعن أبي سعيد الخدري قال : قالت النساء للنبي الكريم ﷺ : "غلب عليك الرجال ؛ فاجعل لنا يوماً من نفسك فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن" (١١) ، وفي رواية أخرى : "جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ؛ فقالت : يا رسول الله ! ذهب الرجال بحديثك ؛ فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله ؛ فقال : اجتمعن في يوم كذا وكذا ؛ في مكان كذا وكذا فاجتمعن ؛ فأتاهن رسول الله ﷺ ؛ فعلمهن مما علمه الله" (١٢) ، ويروي أبو بردة عن والده أنه : قال رسول الله ﷺ "ثلاثة" لهم أجران ، رجل من أهل الكتاب ، آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله ؛ وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة يطأها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها ؛ فأحسن تعليمها ؛ ثم اعتقها ؛ فتزوجها ؛ فله أجران" (١٣) ، وعن مالك قال : أتينا إلى النبي الكريم ﷺ ؛ ونحن شبيهة متقاربون ؛ فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة ؛ وكان رسول الله ﷺ رفيقاً ؛ فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا

(٨) سنن الترمذي ، كتاب البر ، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات .

(٩-١٠) نفس المصدر المذكور أعلاه .

(١١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب "هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم" .

(١٢) صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالسنة ، باب تعليم النبي الكريم صلى الله عليه وآله

سألنا عن تركنا بعدنا فأخبرناه ، قال : ارجعوا إلى أهليكم ؛ فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم (١٤) .

بالرغم من هذه الدلائل والبراهين الساطعة عن تعليم المرأة ؛ وتربيتها ظلت المرأة المسلمة في الهند متخلفة عن مسيرة التعليم ، فقام في هذا الوضع الشيخ التهانوي ؛ وألقى النظر على المجتمع الهندي ؛ ووجد الناس منقسمين إلى ثلاثة أنواع على موضوع تعليم المرأة ، فالنوع الأول قد اختار موقفاً حيادياً لا يؤيد ولا يعارض فكرة تحلية المرأة بالتعليم ، والواقع أن الناس من هذا النوع لا يعتنون بتعليم المرأة البتة ، النوع الثاني يخالف نظرة تعليم المرأة بغاية من الشدة ، والنوع الثالث يبدو مستعداً لتأييد ما ينفع المرأة من التعليم والتربية ، فيؤمن الشيخ التهانوي أن الأفراد من النوع الأول منحرفون عن طريق الصواب ، وهم قد فشلوا في استنتاج تعليم المرأة ؛ وتقدير دورها الملموس ، ونشأ هذا الخطأ عن الفكرة المادية الجامحة ، فهم يفكرون أن المرأة لا تقيمها الوظائف ؛ وضرورة الأعمال خارج سور البيت ، فلا داعي لها أن تتسلح بالتعليم ؛ وتتكلف بما لا يفيد إياها ؛ ولا يفيد أسرتها ، فيعتقد الشيخ التهانوي أن هذا الموقف أبرز مثالاً للفجوات الفكرية المتواجدة بين المسلمين الهنود من هذا النوع ، ولا يدري هؤلاء الناس أن الإسلام دين لا يشيد بفكرة ربط التعليم بالعمالة ؛ ولا يعتبر التعليم وسيلة للترف المادي ، بل إنه يشدد على الحصول على التعليم الديني مؤكداً بأنه تتجلى بالتعليم إمكانية أوسع تقوي إيمان الفرد بخالقه عز وجل ، وهذا هو التعليم الذي ينشط الناس في جميع أشغالهم اليومية ؛ ويرتفع به مستوى سلوك الفرد ؛ وأخلاقه في المجتمع .

إن التعليم لجوهر يصلح به الإيمان والعمل ، فمن هذا المنطلق يجب

في حقيقة الأمر أن عدم الجدية واللامبالاة التي تنعكس عن معاملات الإنسان ، هي وليدة الأمية غالباً ، ويستفحل الأمر إذا تعلق بزمرة النساء بسبب كونهن ناقصات العقل .

ويرى الشيخ التهانوي أن المجموعة الثانية التي تخالف نظرة تعليم المرأة تعتمد فكرها على الأسباب الآتية :

♦ إن فئة النساء إذا اختلطت بفئة الرجال بهذه الطريقة ، فهناك جميع

الإمكانات لنشوء الانحرافات الخلقية ، ويلاحظ أن المرأة المنفتحة بطبيعتها قد تتأثر بإجابة الرجل البليغة ، وفي بعض الأحيان هي تسكت ولا ترد بسبب طبيعتها النسائية الخاصة ، ولكن يظن الرجل سكوتها دالا على الرضا والموافقة ، وهذه هي الأشياء التي أباحت لمؤيدي هذه الفكرة أن يذهبوا إلى حد القول بأن التعليم ؛ هو الذي سبب هذه المشاكل كلها ، فهم يزعمون أن المرأة لو لم تكن متعلمة لما برزت هذه المشاكل .

وهذه المجموعة تؤكد بأنه من معائب المرأة المتعلمة أنها تقرأ كل شئ مكتوب على الصفحات ، سواء كان من الروايات الرومانسية ؛ أو الكتب الماجنة ؛ أو قصص الهوى ، مما تثير فيها الرغبات الجنسية ، فنرى أن النساء المتعلّمات يتغنين أغنيات رومانتكية بصوت جهوري يسمعها الرجال ، وهم قد يفقدون الثبات ، وفي بعض الأحيان يتسبب هذا في حوادث فضيحة .

يقول الشيخ التهانوي : إنه من الصعب جحود هذه الإمكانات ؛ ولكننا إذا تدبرنا في هذا الأمر وجدنا أن هذه المفاصد ليست ناتجة عن التعليم ؛ وإنما المسئول الوحيد عنها ؛ هو منهج التعليم الذي يتسبب في مثل هذه الحوادث ، والحقيقة أن المرأة ما تم تشقيفها بوسيلة الكتب النافعة التي تتناول مسائل الحلال والحرام ؛ ومباحث الجزاء والعقاب والأخلاق ، و طبعا لا يمكن اعتبار شخص يعرف قراءة حروف الهجاء متعلما ، ولا يمكن كذلك اعتبار هذا القدر من المعلومات تعليما ، وكذلك المستحيل أن نقول : إن أحدا يصير متعلما بمجرد قراءة بعض الروايات والمجلات ، وأحيانا نجد أن المقررات الدراسية جيدة ؛ ولكن لا يتم تطبيقها عمليا ؛ وهكذا تظل غاية التعليم بعيدة عن التحقيق ، و أما ما يتعلق باتصال امرأة برجل ما نطقا أو كتابة ، فالتغلب على هذه الظاهرة تمسنا الحاجة إلى مراقبة شديدة على عملية الاتصال ؛ وجعل وسيلتها أمرا صعبا .

والمجموعة الثالثة التي تؤيد نظرية تعليم المرأة ، هي أيضا مخطئة في بعض أفكارها ؛ فهي تظن بأن مجرد الإلمام بحروف الهجاء علم ؛ وأن تصوره للتعليم محدود جدا ؛ وقلما يتضمن بناء شخصية كاملة للمرأة ، وفيه نقص المعالجة العملية للتعليم ، فهي تنجح لتدريس المرأة جميع المواد للتعليم العصري مهما كانت طبيعتها وتأثيرها ؛ وهي بسبب اتباع العصرية غير المعقولة تسرف في موقفها ؛ وتطلب من المرأة المسلمة بأن تقتفي آثار الغرب ، والحق أنهم لم يفهموا الفرق بين الغايتين الأساسيتين لتصور التعليم عندنا ؛ وتصور التعليم عند الغرب ، فالتعليم قد يكون عندهم وسيلة للحصول على الوظائف محضا لإشباع رغباتهم المادية ؛ ولكن التعليم عندنا هو مصدر للهداية ، يتشكل به مجتمع بناء سليم ، وفوق ذلك فإن التعليم يسترشد به الناس ؛ ويتوصلون به إلى الحقيقة المطلقة ، وهذه الضرورات لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق التعليم الديني ، ولكن المرأة التي على عاتقها مسؤولية عن توفير نفقات أطفالها ، هي تستطيع أن تدرس جميع الموضوعات التي تكون لها في ظروفها القاسية وسيلة جيدة للدخل ، وبإمكان هذه المرأة وأمثالها الحصول على أي تعليم مهني ؛ أو حرفة يدوية لسد حاجاتها المعيشية ، ولكن يجب عليها أن لا تنسى لباسا شرعيا مهما كانت مناشطها .

"يرسل بعض الناس بناهم إلى المعلمات المفتحات المؤمنات بالتقدمية للحصول على التعليم منهن ، وذهب الشيخ إلى الاعتقاد بأن الدراسة من مثل هذه المعلمات لا تؤثر على المتعلمات سلبا فقط ؛ بل هي تغير نظراتهن عن الدين ؛ و الثقافة الإسلامية ؛ وإن التأثير للمصاحبة حتمي متعذر اجتنابه ، ويلوح أن الطالبات من هذه النوعية يفتخرون باتباع خطوات معلماتهن اللاتي ؛ قلما يؤمن بالنبل والكرامة ؛ وهن يسحرن الطالبات إلى حد أنهن يجعلنهن قدوة لهن ؛ ويتورطن في عمل لا أخلاقي غير متخوفات عن أسرتهن أو المجتمع الذي يعشن فيه ، إن المرأة تعرف بالحياء والوقار ،

ولكنها في زماننا هذا تلتحق بالمدارس المسيحية الداعية إلى دينها عن طريق التعليم ، ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إنه تتطور حالة البنات المسلمات بسبب هذا التعليم من درجة سيئة إلى درجة أسوء ، وتعرض شخصياتهن للخطر الأشد" (١٥) .

فالمنهج الأسلم لتعليم البنات - كما يعتقد الشيخ التهانوي - هو منهج يتوفر فيه تعليمهن في الفصول المتفرقة بدون أي اختلاط مع الأولاد ، وفي مجموعات صغيرة كي تقلل إمكانيات وقوعهن في المصاحبة السيئة ، وإذا سنحت لهن فرصة الدراسة من قبل المعلمات الصالحات في بيوتهن ؛ فهذا أحسن ، وينصح الشيخ التهانوي ببداية المقررات الدراسية من القرآن الكريم ؛ وتبعه الكتب الدينية الأساسية الأخرى المؤلفة حول تعليم الإسلام بلغة سهلة ، وفي هذا الصدد يمكن للطالبات الاستفادة من كتاب : "بہشتی زیور" ؛ وإذا كان المدرس رجلاً ؛ فعليه أن لا يدرس المواد الخاصة بالأمور النسائية ، والأنسب أن يوجه زوجته إلى أن تدرسها أو يضع خطأً تحت العبارة يوصي بأن تدرسها البنات في الأيام المقبلة .

وقال الشيخ التهانوي : إن هناك العديد من الكتب النافعة للنساء الراغبات في الحصول على التعليم الصحيح البناء ، ويمكن أن ندرسنهن اللغة العربية إذا وجدناهن حريصات عليها ؛ كي يفهمن القرآن الكريم ؛ والحديث الشريف المطهر .

و كان الشيخ التهانوي واثقاً بأن إصلاح المجتمع يجب أن يكون عن طريق تعليم المرأة ، وكان غير مقتنع بالمنهج الدراسية السائدة آنذاك ، ومتأكداً بأن التعليم العصري بين النساء لا يمكن أن يتم به إزالة المفاصل المتفشية في الأسرة المسلمة (١٦) ، والأفضل أن لا تصبح المرأة متقدمة إلى

(١٥) الشيخ أشرف على التهانوي ؛ "بہشتی زیور" (المقدمة) .

(١٦) الشيخ أشرف على التهانوي ؛ "إصلاح النساء" ، مكتبة أنشرفية ، الطبعة الأولى : ص/٤٩-٦١ .

حد يفوقها جمالها الطبيعي .

أيد الشيخ التهانوي منهجا يغرس في نفوس البنات التقوى و الرجاء للجنة ؛ والخوف من جهنم ؛ ويصلح إيمانهن وسلوكهن ؛ وهو كان على يقين بأنه إذا نالت هذه الأغراض أولوية ، سيتغير المجتمع حتما (١٧) .

قصارى القول إنه فضل التعليم الديني المتصف بالميزات المذكورة أعلاه .
 ❖ منهج التعليم الذي أوصى به الشيخ التهانوي :

أراد الشيخ التهانوي أن يرى المرأة المسلمة متعلمة دينيا ، فالمنهج التعليمي الذي أوصى به الشيخ لا يهدف إلى تدريس بعض الكتب ؛ بل هو بحث على التعليم الذي يقوم بتربية الأطفال خلقيا ، فالسمات البارزة لمنهج التعليم ؛ هي فيما يلي :

اللازم أن يكون أول درس للأطفال - الذكور والإناث - كلمة التوحيد : " لا إله إلا الله ؛ محمد رسول الله " مع تحفيظها عن ظهر القلب ؛ و لو بجزء منها إذا لم يمكن حفظها كاملا ، هذا شئ بسيط ؛ ولكنه بعيد الأثر ، ويجب توجيه الأطفال ؛ لأن يدعو الله سبحانه وتعالى ، وكذلك يجب تفهيمهم أن الله ؛ هو الرزاق ذو القوة المتين ، وهو العليم الخبير ، الذي له ملك السماوات والأرض ، وهو على كل شئ قدير ، وإذا ارتكب طفل خطأ ، فلا بد أن نذكره بأن الله سيغضب ؛ وأوصى الشيخ أمه بالقيام بالتوجيه بتحفيظ بعض قصارى السور (١٨) ، ويجب تأكيد الطفل بأداء

الصلاة إذا بلغ السابع من عمره ، ويمكن عقابه على عدم أداء الصلاة إذا بلغ العاشر من عمره ، ولا يناسب اعتبار قراءة القرآن شيئا عاديا ؛ بل يجب تدريس جزء منه إذا لم يمكن تدريسه كاملا .

(١٧) إصلاح النساء : ص / ١٣٠ .

(١٨) إصلاح النساء : ص / ١٨٨ .